مجلة علوم التربية

دورية مغربية متخصصة

- المخطط الاستعجالي لإصلاح التعليم (2009-2011)
- التربية والعولمة في الوطن العربي (منتدى الفكر العربي)
- أجرأة «الميثاق الوطني للتربية والتكوين»
- واقع التعليم في الوسط القروي

العدد السابع والثلاثون- يونيو 2008

التعلم الذاتي والتفكير الإبداعي

• كريمة حليم
أستاذة باحثة

مقدمة

أدت المراجعات الأخيرة في حقل التربية والتعليم إلى خلق اتجاهات جديدة تؤكد على ضرورة التعلم الذاتي، وأهميته في تحرير الطاقات الإبداعية لدى المتعلم وإشباع رغباته وتحقيق استقلاليته في اكتساب المعرفة. فالتعلم الذاتي يشكل مدخلا رئيسيا لتطبيق النظريات الجديدة في علم النفس المعرفي بما يتضمنه من أفكار حول تطوير مهارات الفرد واستخدام وظائفه الدماغية بطريقة أكثر فاعلية. ويشكل التفكير الإبداعي هنا أحد المظاهر المعبرة عن الأداءات المتقدمة للدماغ بحكم ما يتفاعل داخل العلبة السوداء من تخطيط عقلي واستراتيجيات متطورة للتفكير في الحلول المناسبة للمشكلات المطروحة أمام المتعلم. ومن الواضح أن الكفاية الإبداعية لدى المتعلم ترتبط ارتباطا وثيقا بطبيعة ومستوى الإنجازات التي يقدمها، والتي تتميز بالدقة والجودة وعدم التقليد. فإذا نظرنا إلى عملية حل المشكلات لدى المتعلم فإننا نجدها تحمل في مضامينها أنشطة تعليمية تعلمية على درجات مختلفة، حتى إن بعض التربويين يعتبرونها عنصرا أساسيا في بناء وتنمية مهارة التعلم الذاتي.. والتلميذ المبدع هو الذي يمتلك القدرة العالية على التأمل والتفكير في العديد من المشكلات المطروحة والإحساس بها بشكل مرهف وإيجاد الحلول المناسبة لها.

إن التفكير الإبداعي لدى المتعلم لا يمكن أن يتحقق بمعزل عن التعلم الذاتي الذي يمثل بخصائصه ومميزاته حجر الزاوية في بناء وإنتاج الأفكار الجديدة، وذلك من خلال مختلف الأنشطة الذهنية والمعرفية التي يعتمدها التلميذ في استراتيجيته التعلمية.

إن بناء مهارات التعلم الذاتي والتفكير الإبداعي لدى المتعلم باتت تشكل مطلبا ملحا لكل الفاعلين التربويين وخبراء التنمية الذين أدركوا مدى أهميتها كعنصر فعال لتحقيق جودة التعليم بشكل خاص والتنمية البشرية بشكل عام. ذلك أن كل قطاعات

المجتمع بما فيها التربية والتعليم تحتاج إلى الجودة والإتقان وشحذ جميع الطاقات الإبداعية لتحقيق التنمية الشاملة.

ومهما كانت الأهمية التي تعطى لهذه المهارات في منظومتنا التعليمية لا أحد يستطيع أن يشكك في مردوديتها العالية على المستوى البيداغوجي، خاصة وأن تطبيقها الصحيح وبناءها على أسس متينة في المجتمعات المتقدمة أدى إلى إكساب المتعلمين نوعا من الاستقلالية في عملية التعلم والتفكير.

أولا: من التعليم إلى التعلم الذاتي

تشكل العملية التعليمية التعلمية مدخل أساسيا لاكتساب مهارات التعلم الذاتي. أو بمعنى آخر إن كل تعلم مهما كانت طبيعته لا ينطلق من فراغ، بل يعتمد على مكتسبات معرفية سابقة يتم استثمارها من أجل تصحيحها وتطويرها أو تجاوزها أحيانا. فإذا كان التعلم الذاتي من أرقى مراحل التعلم وأكثرها إنتاجية وفعالية لدى المتعلم فإنه لا يستغني مع ذلك عن التلقين كمرحلة أولية لاكتساب منهجية البحث والتعلم الشخصي التي تمكنه فيما بعد من الاستقلال والاعتماد على قدراته الخاصة في اكتساب المعارف.

ولعل هذا ما يؤكده(Anderson al 1994) حينما يذهب إلى اعتبار أن كل متعلم لابد له أن يتوافر في البداية على مجموعة من المفاهيم والكفايات والقدرات التي يستطيع بواسطتها بناء معارف جديدة لحل المشاكل التي تواجهه في محيطه. من هنا يمكن أن نعرف التعلم

الذاتي بأنه "أسلوب يعتمد على نشاط المتعلم حيث يمر من خلاله ببعض المواقف التعليمية ويكتسب معارف ومهارات وميول تتوافق مع سرعته الذاتية وقدراته الخاصة». "[1]

كما يعرفه Gagner. R بأنه "القدرة التي يمتلكها التلميذ لتنمية استراتيجيات إدراكية كالانتباه والترميز وحل المشكلات التي ينميها بواسطة التعليم" . [2]

إن التعلم الذاتي في كل الحالات هو نتيجة تبرز تجلياتها من خلال التغيير الذي نلاحظه في السلوك والمكتسبات المعرفية للمتعلم، وذلك اعتمادا على قدراته الذاتية ورغبته الشخصية في تطوير أداءه وتحقيق أهدافه من التعلم. فإذا كانت عملية التلقين أو التعليم بمواصفاتها المعروفة تشكل حجر الزاوية في اكتساب المتعلم طرق وآليات التفكير الإيجابي لإنتاج الأفكار الجديدة وتحليلها ومناقشتها، بالإضافة إلى اكتساب المعلومات والمهارات الأخرى التي تساهم في التعلم الذاتي، فإن هذا الأخير لا يكتفي بالوقوف عند مرحلة التعليم، بل يتعداها إلى تطوير تلك المكتسبات وبلورتها في اتجاه تحقيق نوع من الاستقلالية لتحصيل المعارف وحل المشكلات. غير أن الوصول إلى هذا المستوى من التعلم والحفاظ على نجاحه واستمراريته وتطويره لا يتأتى في أغلب الحالات إلا بتوفير مجوعة من الشروط الأساسية نذكر منها ما يلي:

_ حاجة المتعلم إلى الاستزادة من التعلم وتوسيع مداركه.

_ وجود رغبة لدى المتعلم في تطوير أداءه

- اهتمام المتعلم بموضوع التعلم الذاتي.
- ضمان تحفيز كافي لدى المتعلم.
- وجود المدرس القادر على تنمية قدرات ومهارات التعلم الذاتي لدى التلميذ.
- توفير المناخ التربوي المناسب الذي يساهم في تشجيع وبلورة كفايات التعلم الذاتي لدى التلميذ.
- تطوير البرامج التربوية بما يتلاءم مع احتياجات المتعلم.
- الإفادة من المكتسبات المعرفية الجديدة والاطلاع المتواصل على مستجداتها.
- استخدام الوسائل التكنولوجية الحديثة.

وجدير بالذكر أن هذه الشروط تتفاعل مع غيرها من العوامل لتساعد على تنشيط المهارات والقدرات التعلمية الكامنة لدى التلميذ. ومن ثم يصبح من الضروري الأخذ بعين الاعتبار الظروف والملابسات المادية والمعنوية التي تحيط بالتعلم الذاتي، خاصة إذا كان المنطلق الأساسي هو ربط المدرسة بمحيطها السيكو والسوسيو ـ ثقافي وتحقيق مبدأ الجودة في التعليم.

ثانيا: أهداف التعلم الذاتي

إن أي تعلم يرسم لنفسه مجموعة من الأهداف التي يروم تحقيقها في النهاية، ومن بين الأهداف التي يسعى إليها التعلم الذاتي ما يلي:

- تفعيل دور المتعلم في العملية التعليمية وتجاوز مرحلة التلقي السلبي للمعارف، وجعله ذاتا فاعلة ومسئولة في اكتساب معارفه.
- تمكين المتعلم من اكتساب مهارات وكفايات حل المشكلات في أوضاع مختلفة وذلك من خلال استثمار قدراته الكامنة وتوظيف مكتسباته المعرفية وطرق تفكيره وخبراته السابقة.
- اكتساب المتعلم مهارة النقد والتقويم لمحصلاته المعرفية، وذلك بالنظر إلى منجزاته انطلاقا من إمكاناته الخاصة وليس مقارنة بالآخرين، مما يكسبه الثقة بالذات ويجنبه الشعور بالفشل أو الإحباط.
- تنمية التفكير الإبداعي لدى المتعلم وذلك بتوسيع مداركه وفتح آفاق جديدة للتأمل في مكتسباته المعرفية وإنتاج أفكار جديدة.
- تلبية احتياجات المتعلم سواء على المستوى المعرفي أو الوجداني أو الحسي الحركي وبالتالي مخاطبة جميع جوانب شخصيته واستثمارها في كل المستويات.
- انطلاق المتعلم في تعلمه الذاتي من ميوله واهتمامه الخاص بالموضوع مما يجعله أكثر فعالية واستقلالية وأكثر ثقة بالذات.

ولعل هذه الأهداف في مجملها تنفتح على فكرة أساسية مفادها: أن هناك فروقا فردية في التعلم يجب أخذها بعين الاعتبار في تقويم النتائج المحصلة. فإذا انطلقنا من مكتسبات علم النفس المعرفي وما حققته نظرية الذكاءات المتعددة من خطوات هامة

في تغيير المنظومة التربوية وطبيعة التواصل بين المدرس والمتعلم والنظرة إلى ذكاء المتعلم، أمكننا تحديد مدى أهمية التعلم الذاتي في الكشف عن القدرات الكامنة لدى جميع المتعلمين وكذلك البحث عن أنسب الطرق لإبرازها وتفعيلها. إن كل متعلم حسب هذه النظرية يمتلك فعاليات ذهنية معينة وقدرات خاصة لا يحق لأي فاعل تربوي جاد أن يتجاهلها. فإذا كانت الممارسة التربوية والتعليمية حتى عهد قريب تستعمل نمطا أحاديا في الأسلوب التعليمي لاعتقادها بوجود نوع واحد من الذكاء لدى كل المتعلمين، مما يسبب في حرمان أغلبهم من التعلم الفعال، وفق طريقتهم وأسلوبهم الخاص، فإن نظرية جاردنر (1983، Gardner في الذكاءات المتعددة تؤكد فعلا اختلاف ذكاءات المتعلمين[3]، وتفرض بالتالي تغيير تمثلاتنا لهم واستخدام الأساليب المناسبة لإفساح المجال أمام التلاميذ للتعبير عن طاقاتهم الإبداعية وإشباع حاجاتهم المعرفية والوجدانية والحسية الحركية. إضافة إلى ذلك فإن تثمين إنجازات المتعلمين والتركيز على الجوانب الإيجابية منها يساهم إلى حد كبير في تحفيزهم على تطوير الإنجازات المستقبلية بما يتلاءم وقدراتهم الخاصة.

ثالثا: استراتيجية التعلم الذاتي

لا يمكن الحديث عن التعلم الذاتي بمعزل عن الاستراتيجيات التعلمية التي يستخدمها التلميذ لتيسير عملية التحصيل والاكتساب المعرفي. وسواء كان هذا الاكتساب يستهدف بناء قدرات ومهارات معينة أو طرق وتقنيات وكفايات لحل المشاكل التي تواجه المتعلم، فإن هذا الأخير يجد نفسه أمام استخدام مجموعة من الخطط والعمليات الذهنية التي تساعده على تحقيق الهدف. من هنا يمكن أن نقول بأن استراتيجية التعلم الذاتي تتضمن مجموعة من الإجراءات التربوية التي يتم من خلالها تقسيم مواضيع التعلم إلى وحدات تحقق كل منها أهدافا معينة من أجل بلوغ الهدف العام وهو الوصول إلى مستوى أكبر من الإتقان وتحسين الأداء. وتبعا لذلك يمكن تحديد استراتيجية التعلم أيضا بأنها» مجموع العمليات الذهنية التي يبرمجها المتعلم طبقا لمكتسباته السابقة وذلك قصد الوصول إلى هدف معرفي معين داخل وضعية تربوية متميزة.«[4]

وترجع الخلفية النظرية لاستراتيجية التعلم بشكل عام إلى أعمال كل من جون كارول 1963 (J. Carroll وبنيامين بلوم (1971 B. Bloom وبناء على نموذج كارول حول التعلم المدرسي وعوامل التأثير في نجاح المتعلمين تم استخلاص بعض العناصر الأساسية لاستراتيجية التعلم[5] ومن بينها:

- الاستعداد
- طرق التعلم والتدريس،
- المثابرة

ـ الوقت الذي يستغرقه المتعلم.

ـ تقويم النتائج.

وإذا كانت هذه العناصر من جهة تشكل قاسما مشتركا بين المداخل التعليمية التعلمية فإنها من جهة أخرى تكتسي طابعا خاصا يخضع للفروق الفردية بين المتعلمين سواء على مستوى الاستعداد والرغبة في التعلم أو على مستوى المدة الزمنية التي يستغرقها المتعلم في إنجاز عمل محدد أو سرعة إيقاع هذا العمل ومردوديته مقارنة مع جهوده السابقة وليس مع باقي المتعلمين.

إن أهمية استراتيجية التعلم الذاتي تكمن في الكشف عن آليات الاشتغال الذهني لدى كل متعلم وطرق هذا الاشتغال ومدى سرعته وفعاليته في تحقيق الأهداف التي يرسمها لنفسه. وإذا كانت الاستراتيجية التعلمية عبارة عن مفهوم افتراضي غير قابل للملاحظة المباشرة فإننا نستطيع الاستدلال عليه من خلال العديد من المؤشرات مثل التعبيرات اللفظية التي تكشف عن الطرق والتقنيات التي يستعملها الفرد في تعلمه، وكذلك الإنجازات السلوكية التي نلاحظها لدى المتعلم. من هنا يمكن القول مع (Yongqi Gu (2005 بأن الإستراتيجية التعلمية تبقى في جوهرها عملية دينامية تتجه نحو البحث عن إيجاد الحل المناسب للمشكل المطروح وتتطلب مجموعة من الإجراءات[6] مثل:

ـ الانتباه الانتقائي

ـ تحليل المهمة

ـ اتخاذ القرار المناسب

ـ إنجاز المخطط المرسوم

ـ تتبع الإنجاز وإدخال التعديلات عند الضرورة

ـ تقويم النتيجة.

غير أن واقع الممارسة في موسساتنا التربوية والتعليمية يكشف عن الهوة السحيقة بين ما يجب أن يكون وبين ما هو كائن، ذلك أن تنمية مهارات التعلم الذاتي وبناء الاستراتيجيات التعلمية القائمة على أساس علمي لدى التلاميذ، يتطلب الكفاية العالية وطول النفس لدى المدرسين الذين يتخبطون بدورهم في العديد من المشاكل بسبب غياب مشروع واضح للنظام التربوي، إضافة إلى ما يواجهونه من إكراهات الواقع التعليمي الذي يحول دون إفساح المجال لتواصل تربوي جيد بين المدرس والتلاميذ.

فاكتظاظ الفصول الدراسية وطول المقررات ومطالبة الأساتذة بإتمامها وفق جدولة زمنية محددة ونظام الامتحانات، كلها عوائق تحول دون إنجاح بيداغوجيا الكفايات وبناء المهارات اللازمة للتعلم الذاتي لدى التلاميذ.

رابعا: التفكير الإبداعي

كثيرة هي النظريات التي تناولت التفكير الإبداعي مثل النظرية الترابطية والنظرية الجشطالتية والنظرية التحليلية والنظرية المعرفية، وبالرغم من ذلك كله ما تزال الحاجة ماسة للمزيد من الاهتمام بهذا الموضوع خاصة داخل المؤسسة التربوية التي أصبحت اليوم أمام العديد من التحولات في مناهجها ووظائفها التقليدية.

ومصطلح الإبداع يعني الإنشاء أو الاختراع على غير مثال سابق، وتقول العرب: بدعه بدعا أي أنشأه وبدأه، وأبدعه، أي اخترعه وصنعه وأحدثه على غير مثال سابق من ذي قبل، وأبدع الشاعر أي جاء بالبديع. (كمال إبراهيم مرسي1992)[7]

ويرتبط التفكير الإبداعي ارتباطا وثيقا بالإبداع، غير أن هذا الأخير يصف الناتج العقلي، أما التفكير الإبداعي فيتجه إلى وصف كيفية الاشتغال الذهني.

وقد تعددت التعريفات التي أعطيت للتفكير الإبداعي

إذ يعرفه «جيلفورد» (1975) Guilford بأنه» عملية تقوم بها قوى عقلية كالأصالة والمرونة والطلاقة والإحساس بالمشكلات. ويعتبره كاتل (1974) Cattell وجالان (1963)Gallan بأنه سمة من سمات الشخصية الديناميكية تظهر في الإدراك السليم وطلاقة الأفكار ومرونة التعبير والجرأة في مواجهة المواقف الضاغطة والاستجابة لها استجابة جديدة وأصيلة.[8]

(كما تعرفه نهى مصطفى(1997) بأنه عملية تهدف إلى إيجاد حل فريد للمشكلة عبر سلسلة من العمليات المعرفية.»[9]

ويعرف فتحي جروان (1999) التفكير الإبداعي بأنه « نشاط عقلي مركب وهادف توجهه رغبة قوية في البحث عن الحلول أو التوصل إلى نواتج أصيلة لم تكن معروفة من قبل. ويتميز التفكير الإبداعي بالشمولية والتعقيد لأنه ينطوي على عناصر معرفية وانفعالية وأخلاقية متداخلة تشكل حالة ذهنية فريدة». [10]

بناءا على ما سبق يمكن أن نستنتج بأن التفكير الإبداعي هو نشاط عقلي وعملية اشتغال ذهني و معرفي تتضمن مجموعة من العناصر الأساسية التي تميزه عن أي تبعية أو تقليد

مثل الجدة والدقة والفعالية والفائدة التي يمكن للفرد والمجتمع أن يجنيها من وراء هذا النشاط. ومعنى ذلك أيضا أن الفرد المبدع في أي مجال من المجالات هو شخص متجذر في المجتمع، حيث يعبر من خلال نشاطه الابداعي عن طموحاته وتطلعاته للأداء والوجود الأفضل في جو تسوده الحرية والاستقلال الذاتي. وإذا كانت القدرة على التفكير الإبداعي والابتكار تأتي نتيجة لاستخدام الأسلوب العلمي في التفكير وفي تحقيق الأفكار ومراجعتها وفي إدراك الكليات والمفاهيم وتشخيص المشكلات الضاغطة وتحديد أساليب معالجتها المعالجة المثلى التي تستحقها نوعية المشكلة المطروحة، فإن ذلك لا يتم بمعزل عن مجموعة من الاعتبارات الأساسية حيث نجد منها: ما يرتبط بالجوانب النفسية، والفروق الفردية، وطبيعة الذكاء وبنية الشخصية، ومنها ما يخص الجوانب الاجتماعية والثقافية وتفاعلات الفرد داخل الجماعة ومدى توافقه مع قيمها ومعاييرها السائدة. والجدير بالذكر

أن التفكير الإبداعي هو من أرقى الوظائف الدماغية لدى الكائن البشري، ويتمثل في مجموعة من القوى الذهنية التي لا غنى عنها في هذه العملية مثل: الطلاقة المرونة الدقة والأصالة. وقد نبه جيلفورد(1967) على أن وجود تلك القوى والاستعدادات لا يعني بالضرورة أن الإنسان سيكون مبدعا مبتكرا، فهي تمثل ما يعرف بالإبداع الكامن، ولكي يتحول هذا الأخير إلى إبداع فعلي لابد من توفر مجموعة من السمات أو الخصائص الشخصية المزاجية والدافعية التي تتيح للقوى الكامنة أن تتحول إلى أداء ملموس في الواقع الخارجي المحيط بالفرد. كما أن التفكير الإبداعي ككل ليس مجرد نشاط عقلي صرف، ولكنه بالإضافة إلى ذلك يمثل خاصية بشرية وأداء إنساني متميز داخل مجتمع يتيح لأفراده قدرا من الحرية في التعبير عن الحاجات الضرورية من أجل إشباعها.

خامسا: العوامل المؤثرة في الإبداع

تختلف العوامل الفاعلة في الإبداع بين ما هو فطري وراثي وبين ماهو مكتسب. فإذا كانت الوراثة لها دور في إيجاد الاستعداد والطاقة الكامنة للإبداع فإن البيئة الخارجية بما تتضمنه من عوامل ومؤسسات التنشئة الاجتماعية تلعب دورا بليغا في تنمية القدرات الإبداعية لدى الفرد. ذلك أن الطفل يولد منذ البداية ولديه استعدادات وقدرات محايدة لكنها تنمو وتتطور من خلال طبيعة البيئة الاجتماعية وما تتضمنه من مستويات مادية وثقافية..

إن الإقرار بالتكامل بين الجانبين الفطري والمكتسب في التفكير الإبداعي يحيلنا بالضرورة إلى ما توصلت إليه السيكولوجيا المعرفية من خلال تأكيدها على دور العوامل الوراثية والعوامل الخارجية في بلورة التفكير والاكتساب المعرفي عند الإنسان. وإذا كانت هذه المقاربة تفاعلية بامتياز «فلأنها تجمع بين بنية الذات وبنية الواقع في عملية لمعالجة المعلومات يحول الإنسان بموجبها المعطيات الخارجية إلى رموز وإلى تمثلات ذهنية بحيث إن الذهن أو المعرفة تتغير بالمحيط والمحيط يتغير بالمعرفة. فالطريقة التي ندرك ونفهم بها العالم الخارجي تتحدد بالمعارف التي نتوفر عليها وهذه المعارف بدورها تتحدد بالمحيط الواقعي.»[11]

وإذا انطلقنا من نفس المقاربة المعرفية يمكن القول بأن التفكير الإبداعي..... ليس مجرد أداء عقلي فريد، بل هو أيضا انعكاس لأساليب ثقافية وعلاقات اجتماعية تواصلية وممارسات سياسية، بحيث عندما يتوفر المناخ النفسي والثقافي والاجتماعي والسياسي الملائم يمكن آنذاك للفرد داخل المجتمع أن يعبر عن قدراته الإبداعية ويكشف عن طاقاته الكامنة. وبالتالي فإن الأنشطة العقلية بما فيها النشاط الإبداعي وإن كانت محكومة بمنطق الفروق الفردية وبمتغيرات ذاتية كالاستعداد وبنية الشخصية وطبيعة الخطط التي يستخدمها المتعلم في حل المشكلات... فإنها تخضع أيضا لتأطير المحيط الخارجي بما يتضمنه من متغيرات وعوامل مختلفة.

وإذا كانت النظرية المعرفية تفيد بان التفكير الإبداعي يتضمن سلسلة من العمليات المعرفية مثل الانتباه والإدراك والوعي والتنظيم والتميز والوصول في النهاية إلى الحل الجيد، فإن ذلك كله لا يتم بمعزل عن الواقع الخارجي الذي يساهم في تيسير عملية التفكير الإبداعي أو يعوقها. ومن ثم فهو يمثل سمة عقلية ونفسية متجانسة إضافة إلى كونه محصلة لتفاعل تركيبي ومعقد بين كل من خصائص الشخصية والمحيط الواقعي. من هنا يمكن

القول بأن التفكير الإبداعي ليس عملية معزولة بل إنها نتاج للتواصل مع العالم الخارجي في إطار الإحساس المرهف والتشخيص الدقيق للمشاكل التي تطرح تحديات أمام المتعلم.

سادسا: التعلم الذاتي وعلاقته بالتفكير الإبداعي

يشكل التعلم الذاتي أرضية لانطلاق التفكير الإبداعي وذلك بما يتيحه للمتعلم من استقلالية وحرية في التفكير واعتبار لميولاته واهتماماته المعرفية. كما أن المبادئ الأساسية التي يقوم عليها التعلم الذاتي تشكل الدعامات الأولية للتفكير الإبداعي الذي يتجه بطبيعته إلى التخلص من التبعية المعرفية. فإذا كان التعلم الذاتي يتطلب قدرات ومهارات ذات مستوى متميز وعال لدى التلميذ فإن التفكير الإبداعي يتطلب بداية القدرة على تشخيص المشكلات والاستقلالية والمرونة والأصالة في التفكير إلى جانب الدافعية والثقة بالنفس والاكتفاء الذاتي والقدرة على تنظيم الأفكار والتعبير عنها بتلقائية. وهو ما توفره خبرات التعلم الذاتي ومهارات المتعلم في التعاطي مع المشكلات التي تواجهه وطبيعة الاستراتيجيات المعتمدة في كل موقف تعلمي. إن هذا التكامل الوظيفي الذي يجمع بين التعلم الذاتي والتفكير الإبداعي يؤكد طبيعة العلاقة الترابطية القائمة بينهما. كما يؤكد جانبا من الخصائص الأخرى المشتركة بينهما والتي تتجلى في الحاجة أو الدافع. ذلك أن حاجة المتعلم إلى المعرفة والمزيد من الاستكشاف لحل المشكلات التي تثير لديه قلقا معرفيا، يشبه إلى حد كبير حاجته في نظام الحياة البيولوجية، بحيث تدفعه إلى تحريك وتفعيل كل طاقاته الفكرية و قدراته الكامنة. كما أن التفكير الإبداعي هو وليد الحاجة في نظام الحياة العقلية، لكن المتعلم يكون أيضا موجها في تفكيره الإبداعي بمثيرات خارجية معينة تساعده على إشباع حاجته الفردية المتمثلة في تقدير الذات وإثباتها والشعور بالرضا... أو حاجته الاجتماعية المتمثلة في الشعور بالانتماء إلى مجتمع يفيد ويستفيد من إنجازاته وإبداعاته الخاصة. . وقد حدد ماسلوMaslow احتياجات الإنسان في خمس حاجات أساسية وهي: الحاجات الفيزيولوجية والحاجة إلى الأمن والحاجة إلى الانتماء والحاجة إلى التقدير والحاجة إلى تحقيق الذات وإثباتها. ويندرج تحت هذا النوع الأخير الحاجة إلى حب المعرفة وحب الاستطلاع، ذلك أن الإنسان بطبيعته يشتاق لمعرفة ما يجهله، فكثير من الأبحاث التي يقوم بها المتعلم تحركها الحاجة إلى حل المشكلات العلمية، وعندما تظهر هذه الحاجة تحتاج المعرفة لإشباعها، فكثيرا ما ينشغل التلميذ أو المتعلم بالتفكير المجرد للوصول إلى حل للمشكلة التي تقلقه وتشغل باله، وبالتالي فإن الحاجة إلى المعرفة وحب الاستكشاف كغيرها من الحاجات الأساسية تختلف في قوتها وضعفها باختلاف المتعلمين ومستوياتهم الفكرية واهتماماتهم. وقد وجد كاتل 1957Cattle في تحليله للدوافع الإنسانية حاجة أطلق عليها الاستكشاف وهي تبرز الفروق الفردية بوضوح.[12]

كما يمكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك، خاصة إذا اعتبرنا بان المتعلم الذي يستغل قدراته إلى أقصى مداها بما يعود عليه وعلى محيطه بالفائدة، يمكنه أن يحقق في نفس الوقت حاجاته السيكولوجية التي تشعره بالرضا وتحقيق التوازن بين مطالب الذات ومطالب الواقع،أو بمعنى آخر النجاح في تحقيق معادلة التوافق النفسي. من هنا يمكن اعتبار التفكير الإبداعي إحدى المؤشرات الدالة على حسن التوافق والصحة النفسية باعتبار ما يعكسه من ثقة بالذات وتقديرها وإدراك للعوامل البيئية. إن إبداعات المتعلم تحدد بصورة واضحة مستوى تكيفه مع العالم

الخارجي، خاصة إذا ما كانت تلك الأفكار قابلة للتطبيق في العالم الواقعي. ونظرا للاعتبارات السابقة يمكن القول: إن التلميذ في تعلمه الذاتي و تفكيره الإبداعي برغم المظهره الفردي، يظل كائنا اجتماعيا تنمو وتتطور جميع قدراته من خلال تفاعله وتواصله مع البيئة المحيطة، التي تغني بمثيراتها الحسية والحركية والوجدانية والمعرفية، وكذا بإيحاءاتها المختلفة كل تعلم ذاتي أو تفكير إبداعي لديه.

خلاصة واستنتاجات:

إن علم النفس الحديث بأدواته العلمية يمكن أن يكشف عن الطاقات والقدرات الكامنة لدى المتعلم وتنميتها وبلورتها في اتجاه تحريره من التبعية، وتكريس مبدأ الاستقلالية والاعتماد على الذات والثقة بإمكاناتها وقدراتها لتحصيل المعارف وإيجاد الحلول المبدعة للمشاكل المطروحة، وهو ما من شأنه أن يساهم في بلورة مشروع تربوي أكثر فاعلية، و يحدد الخطوات الضرورية التي تساعد الناشئة في مختلف مراحل التعليم للتعبير عن قدراتها الإبداعية ومهاراتها اللامحدودة في إنجاز تعلماتها الذاتية. ذلك أن التوجيه التربوي السليم وتوفير المناخ السيكولوجي الصحي داخل الأسرة والمدرسة وكل المؤسسات الفاعلة في المجتمع، قد يكون له بالغ الأثر في التوجهات المستقبلية إن على مستوى التفكير والرؤى أو على مستوى التعاطي مع مستجدات ومشاكل الحياة، والتغيرات التي يعرفها الواقع.

وإذا كان الإبداع في حد ذاته عملية ديناميكية وتفاعلية تجمع بين استعدادات الفرد وقدراته الطبيعية، وبين تأثير الوسط الاجتماعي فإن بناء مهارات التفكير الإبداعي لا يمكن أن يتم بمعزل عن خبرات التعلم الذاتي ومختلف الاستراتيجيات الهادفة التي يستعملها التلميذ في حل المشكلات. وفي الختام يمكن القول: إننا في ظل التطورات السريعة التي يعرفها العالم وأمام الثورة المعلوماتية الهائلة التي نعيش على إيقاعها اليوم نبقى في حاجة ماسة إلى استيعاب هذه التحولات والبحث عن آليات التوافق التي تمكننا من مسايرتها، وبالتالي فإننا نحتاج إلى استثمار مختلف طاقاتنا وقدراتنا العقلية، والتعود على التفكير بطرق مختلفة تواكب التغيرات الحاصلة. ولكي يتحقق ذلك في تقديرنا نقترح الخطوات التالية:

ـ إصلاح المنظومة التربوية بما يتلاءم مع طبيعة التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والاستعانة في ذلك بخبراء في مختلف المجالات التي تصب في قطاع التربية والتعليم.

ـ إعادة النظر في برامج تكوين المدرسين بالمدارس العليا للاساتذة والمراكز التعليمية الجهوية و كلية علوم التربية، بما يتوافق مع اكتساب المهارات التدريسية اللازمة للمدرسين.

ـ إعداد وتكوين الأطر التربوية والتعليمية القادرة على الاضطلاع بمهمة إدارة عملية التفكير الإبداعي وكيفية استخدام الاستراتيجيات التي تساعد على تنمية مهاراته لدى المتعلمين.

ـ الاهتمام ببناء مهارات التعلم الذاتي والتفكير الإبداعي لدى المتعلمين بمختلف المراحل التعليمية، وتزويدهم بالمعرفة اللازمة عن طبيعة التفكير، وكيفية التعلم وكيفية حل المشكلات بفاعلية أكبر وكيفية تشغيل

الدماغ إلى أقصى درجة ممكنة، مما يساعد المتعلمين على تحمل مسؤولية تعليم أنفسهم واكتساب مهارات التعلم الذاتي.

ـ إدراج علم الإبداع بفروعه المختلفة ضمن المقررات والمناهج التعليمية في جميع المستويات والتخصصات، وتكوين المدرسين في اتجاه اكتساب مهارات استخدام هذا العلم وتبليغه إلى المتعلمين.

ـ تعلم أساليب التفكير النقدي ومهارات التفكير التي تتضمن التصنيف والمقارنة والاستنتاج والتنبؤ ومختلف المهارات العقلية مثل الفهم والتحليل والتركيب والتقويم... وغيرها.

ـ إعداد برنامج عملي لتشجيع التفكير الإبداعي لدى المتعلمين وتطويره، والسهر على تطبيقه من خلال التدريب والتمرين المستمر والمتواصل.

المراجع:

1 ـ فوزي الشربيني (1997) الموديلات التعليمية بين النظرية والتطبيق. المكتبة الأنجلو مصرية. القاهرة.

2- Robert Gagné. Les principes fondamentaux de l'apprentissage. Application à l'enseignement. Ed. vivantes. Québec.

3 ـ أحمد أوزي (1999) التعليم والتعلم بمقاربة الذكاءات المتعددة، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء.

ـ أحمد شبشوب (1997) مدخل إلى الديداكتيك العامة. دفاتر في التربية. العدد الرابع. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء.

5 ـ مصطفى محمد كامل (1999) استخدام استراتيجية التعلم حتى التمكن. مجلة علم النفس. العدد الواحد والخمسون. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

6-Peter yongqi Gu. (2005) Learning strategies. Prototypical core and dimension of variation.

7 ـ كمال إبراهيم مرسي (1992) رعاية النابغين في الإسلام وعلم النفس. دار العلم للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى. الكويت.

8 ـ كمال إبراهيم مرسي (1992). مرجع سابق.

9 ـ نهى مصطفى (1997) أثر برنامج تعليمي في تنمية التفكير الإبداعي. مجلة علم النفس. العدد الثالث والأربعون. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

10 ـ فتحي عبد الرحمن جروان (1999) تعليم التفكير مفاهيم وتطبيقات. دار الكتاب الجامعي عمان.

11 ـ الغالي أحرشاو أحمد الزاهر (2000) التمدرس واكتساب المعارف. مجلة العلوم التربوية والنفسية. جامعة البحرين. العدد الأول.

12 ـ عطوف محمود ياسين (1981) مدخل في علم النفس الاجتماعي. دار النهار للنشر. بيروت.